الأهرام

المصدر : الاهـــــــــرام
التاريخ : ١ اكتوبـــــر ١٩٩٥

اتفاق طابا.. والجنرال الغبى!

بقـلـم :
محمـد عـبدالمنعـم

ربما كان السلام بين العرب واسرائيل هو أغرب سلام فى تاريخ النزاع الانسانى، ولاغرابة فى ذلك فهو سلام «شرق أوسطى» وبالتالى يختلف قطعا عن كل أنواع السلام فى أركان الدنيا، ماضيها وحاضرها، شأنه فى ذلك شأن كل مايحدث - او مايأتى - فى هذه المنطقة الساخنة أبدا.. فهو بالقطع ليس سلاما مثل هذا الذى شاهدناه بين المانيا والحلفاء فى أعقاب أضخم حرب شهدها العالم بأجمعه، او سلاما كالذى شاهدناه بين الحلفاء واليابان ، وهى الدولة التى كانت تقدس النزعة العسكرية ، ولا بين أمريكا وفيتنام التى كانت الحرب بالنسبة لها هى الاختيار الوحيد المتاح ، ولكن السلام بين العرب واسرائيل هو «سلام شرق أوسطى» من نوع فريد، تخيم على محادثاته أجواء المعارك أكثر من ظلال أجنحة «الحمائم» وأغصان الزيتون!

وربما كان من أغرب جوانب هذا السلام عندنا أن الحروب بيننا وبين اسرائيل لم تستغرق سوى أيام معدودة ، بينما عملية السلام بيننا تدخل الآن عامها الثامن عشر ومازال السلام ناقصا لم يتحقق بالكامل وبالشكل الذى ينبغى أن يكون عليه. وعلى عكس ذلك تماما، فإن الحروب فى كل أركان الدنيا استغرقت سنوات مريرة وطويلة بينما لم يستغرق تحقيق السلام بينهم سوى أيام او اشهر قليلة فى أسوأ الظروف ، فى ذلك فان المسألة ليست مسألة جذور تاريخية بقدر ماهى عقلية مختلفة تماما.. «عقلية شرق أوسطية» تحمل فى ثناياها كل متناقضات الدنيا، وكل تراكمات التاريخ دون ان تعي كثيرا من دروسه.

■ ■ ■

● وخلال الأيام الأخيرة شاهدنا معا توقيع أتفاق طابا، الذى يشمل المرحلة الثانية من اعلان المبادىء لتوسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية ، وهو بلا شك خطوة مهمة وحيوية على طريق السلام الشامل بين العرب واسرائيل، ولكن روحا غريبة كانت تخيم على هذا الاتفاق فجعلت منه أقرب الى اتفاق طلاق بين زوجين أثر زيجة فاشلة قرر بعدها الطرفان الانفصال ،وان ينص العقد على كل مايناله كل طرف من ممتلكات وأثاث وأمتعة ، وامتدت بنود العقد لتشمل حوالى أربعمائة وخمسين صفحة بسبب التفاصيل الكثيرة، وبسبب المخاوف وعدم الثقة ، وبسبب ان روح السلام الحقيقى لم تخيم بعد على المنطقة، رغم كل الاتفاقات التى أبرمت.

وفى الوقت الذى كان يتفاوض فيه الطرفان على مائدة السلام فى فندق طابا - ولا ننسى أن طابا هى الأخرى كانت ملحمة طويلة ومضنية فى عملية السلام بين مصر واسرائيل - فى نفس هذا الوقت الذى كان يتفاوض فيه أصحاب المشكلة الحقيقية، كان التطرف السياسى فى المنطقة قد وصل الى ذروته على الجانبين يطالب بنبذ العملية السلمية دون ان يقدم بديلا واحدا يتسم بالعقلانية ، او الواقعية ، أو حتى ادنى رغبة فى ايجاد مستقبل أفضل للجميع، بل أن هذا التطرف وصل الى حد نبذ السلام دون أن يقدم أى بديل من أى نوع!!

وحتى تزداد المسألة تعقيدا فانه فى الوقت الذى لاح فيه بصيص أمل للشعب الفلسطينى، الذى عانى مالم يعانه اى شعب آخر، فى هذا الوقت بالذات خرجت علينا ليبيا من أقصى اتجاه الغرب تقرر فجأة طرد الفلسطينيين، الذين عاشوا سنوات فوق أراضى ليبيا يعملون وينتجون ويحاولون ايجاد حياة شريفة فوق أرض شقيقة.. فجأة قررت السلطات الليبية ذلك ، ارباكا لمسرح سياسى تتقوض أركانه اساسا بسبب فوضوية القرار ، والتغير الحاد فى المزاج الشخصى!

ولأن التطرف هو درجة من درجات الجنون، فان الواقع دائما ما يأتى مخالفا لتصورات وارادة هؤلاء ، ومن هنا جاء تطور الأحداث وفى مقدمتها اتفاق طابا، مغايرا تماما لماهيات له عناصر التشدد هنا وهناك ، وظلت طوال الأشهر الماضية تقرع بشكل هيستيرى طبول العنف والعداء ، كما لو كان السلام الذى استغرق حتى الآن ثمانية عشر عاما ، هو الآخر «نزوة مزاج» عابر، وليس استراتيجية فرضها الواقع وتجارب طويلة خرجت عن النطاق المحلي، ولعبت فيها كل الأطراف الدولية دورا رئيسيا ومباشرا.

ولاشك أن الكراهية موجودة بين الطرفين، وأنها عميقة الجذور وبشكل متداخل ، ولاشك أيضا ان هناك من يغذى هذه الكراهية عمدا على الطرفين، وهناك أيضا من يستغلها لأسباب سياسية وشخصية ، وقد كان اخر من غذى هذه الكراهية عمدا وبصفاقة بالغة هذا المدعو إيريه بيرو الذى اعترف بصلف غير مسبوق بانه قتل عمدا مئات من الأسرى المصريين فى سيناء خلال حرب ١٩٥٦ .. عمل حقير يصعب على أى انسان متزن ان يعترف به جهارا، وجاء فى توقيت بالغ الحساسية، ومن ثم لايمكن ان نكون من السذاجة والغفلة بحيث نأخذه على أنه مصادفة ، او صحوة مفاجئة لضمير أثبتت أفعال الماضى انه معدوم، وأن صاحبه خرج الى الحياة بعيب خلقى يتمثل فى نقص عضو معنوى اسمه الضمير!!

وقد يجوز جدا لنا الآن أن نأخذ هذا الاعتراف الغبى من هذا الجنرال الغبى، على أنه كان محاولة - او قل مؤامرة - لاجهاض اتفاق طابا بالذات، لأن هذا الاتفاق يعنى بالدرجة الأولى تبديد الحلم الصهيونى بشأن انشاء اسرائيل الكبرى، وكل ما استشهد به البعض من التوراة لاثبات أن هذه الأرض باكملها هى أرض الأجداد ، وأن كل بقعة منها جاء ذكرها فى الكتاب المقدس لليهود... نعم ان هذا الاتفاق بالذات يعنى تخلى اليهود عن حلم اسرائيل الكبرى، ومن ثم قامت المظاهرات الضخمة فى اسرائيل عقب توقيع الاتفاق، وهاجم الاسرائيليون رئيس الوزراء اسحق رابين الذى كانوا يحملون صورا له «بالعقال الفلسطينى» متهمينه بعدم الولاء لدولة اسرائيل وأن ولاءه أكبر بالنسبة للعرب وللفلسطينيين.

■ ■ ■

■ وقد يتساءل البعض لماذا اختار المتآمرون على السلام والذين كان الجنرال السفاح بالنسبة لهم أداة غبية يحركونها كالدمية لتقول هذا أو ذاك ، قد يتساءل البعض لماذا اختار هؤلاء قصة الأسرى المصريين فى عام ١٩٥٦ ، والاجابة المنطقية عن ذلك هى ان اثارة المصريين فى هذا الوقت ستجعل من مصر غير قادرة على تقديم العون الذى يحتاجه الفلسطينيون فى مباحثاتهم الصعبة والحرجة من أجل توسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة، وأن الرئيس مبارك بدلا من أن يلعب دوره الاساسى والمتميز فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين وفى استغلال علاقاته واتصالاته الدولية للضغط على من يحاول الجور على عملية السلام وتحويلها الى مكاسب لجانب واحد فقط.. بدلا من ذلك وبدلا من أداء هذا الدور الفعال، فان الرئيس مبارك سيكون مشغولا بالتعامل مع الأزمة التى أثارت كل المصريين وفتحت جروحا عميقة بعد أن كادت تلتئم، ، بل وربما ان الرئيس مبارك الذى يساند عملية السلام بكل قوته ويعمل كل مايمكنه ليجعل منها عملية سلام شامل تشترك فيها كل الأطراف العربية .. بدلا من ذلك فان الرئيس مبارك قد يضطر هو الآخر لنسف ماتبقى من هذه العملية وعدم تشجيع المضى قدما لتحقيق السلام الشامل فى المنطقة ، وبالتالى يظل «حلم اسرائيل الكبرى» حيا ينبض بقوة فى وجدان وعقول كل المجانين!!

أعتقد أن هذا كان هو الهدف المراد ، خاصة وأن حلم اسرائيل الكبرى لايراود إلا أذهان ووجدان المتطرفين والمتشددين والمخبولين هناك اما بالنسبة للعقلاء الذين يتعاملون مع واقع الحياة وروح العصر الذى نعيش فيه فإنهم هنا وهناك يقومون بما يتفق وينسجم مع هذا الواقع، ولذلك فهم بالنسبة لهؤلاء المجانين «خونة» و «عملاء» للعرب والفلسطينيين! وعلينا أيضا فى هذا الاطار أن نضع فى اعتبارنا أن الانتخابات الاسرائيلية ستجرى بعد بضعة أشهر، وأن هناك أجنحة اخرى على المسرح السياسى فى اسرائيل ترغب فى هزيمة رئيس الوزراء الحالى ، وأن الذريعة التى يمكن أن يستخدموها بكفاءة وفاعلية هى أن رابين وبيريز أضاعا معا «الحلم الجميل» بل أنهما حولا معا كل الأحلام والأمانى الى واقع مرير وكوابيس لا لشيء إلا من اجل استمرار عملية السلام وتقديم التنازلات للفلسطينيين!

■ ■ ■

إثراء
المعارف الرقمية
www.ethraadl.com

الأهرام

●وبالفعل عندما سمع المصريون اعترافات قتل الأسرى فى حرب ١٩٥٦، ثار الرأى العام المصرى وتناول جميع الكتاب ورجال الصحافة والاعلام هذا الحادث بهجوم ضار لم تشهده العلاقات المصرية الاسرائيلية منذ توقيع اتفاقية السلام بين البلدين، ولقد كان ولابد أن يثور الرأى العام عندنا، وكان ولابد ان يثور كل الشرفاء من رجال الصحافة والاعلام متناسين جميعا اتجاهاتهم وانتماءاتهم السياسية المختلفة، كان ولابد ان يحدث ذلك فالمجتمع المصرى مجتمع نابض دوما وممتلىء بالحياة ، ولكن الشيء الوحيد الذى أغفله من فجروا هذه القنبلة فى هذا الوقت الحساس هو رد فعل الرئيس مبارك فى مثل هذه الأحوال، لقد كان الرئيس أول من سمع بهذه القصة ولم ينتظر قراءتها فى الصحف كما فعل معظمنا ، وارتاب الرئيس من غرابة الاعتراف المفاجىء ومن التوقيت المحسوب بعناية، وفى مثل هذه الأحوال فان أفضل الحلول هو المضى قدما فيما تقوم به مصر حتى لايضيع الهدف ، والانتظار حتى يتبدد الضباب وتتكشف الحقيقة.. وكان هذا هو ماحدث وتحقق الاتفاق بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، ومن ثم اندلعت مظاهرات المتشددين فى اسرائيل فى الوقت الذى كان يقف فيه الرئيس مبارك شامخا فى البيت الأبيض الأمريكى مع الرئيس كلينتون والرئيس عرفات ورابين وبيريز والملك حسين وعدد من قادة العالم يحتفلون بانجاز الاتفاق التاريخى، الذى يبشر بسلام حقيقى فى الشرق الأوسط على حد وصف وسائل الاعلام العالمية.

بذلك سقط بيرو ومن حركوه ودفعوه الى هذا الاعتراف، لأن الأمور وصلت الى الحد الذى لايمكن معه السكوت على هذه الجريمة الحقيرة ، ولما كان السلام قد وصل الى منطقة اللاعودة خاصة بعد اتفاق طابا، فان تكملة المشوار الصعب تحتاج أول ماتحتاج الى معالجة حاسمة للجهات، والدوائر والاشخاص الذين يعرقلون ويهددون هذا الاتجاه وفى مقدمة هؤلاء يأتى هذا الجنرال السفاح وكل من وقفوا خلفه فى ساحة المعركة خلال حرب ٥٦، وفى الحلبة السياسية الاسرائيلية حاليا استعدادا للانتخابات الجديدة فى العام القادم ، ويجب أن نعى جيدا ان الذين خططوا لهذه العملية ويحلمون بالفوز فى الانتخابات القادمة، أرادوا بالدرجة الاولى ان يتخصلوا من قيود التزامات مسبقة تفرضها الآن حكومة رابين فى اطار الاتفاقات السلمية مع الجانب العربى، وبالتالى تصبح اتفاقات ملزمة لأى حكومة تأتى بعد ذلك ، هذا والا تفقد اسرائيل صورتها كدولة ديمقراطية، وتفقد أيضا مساعدات ومساندات كل الدول التى لعبت دورا فى تحقيق هذه الاتفاقيات، وفى مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن السلام قد وصل الى نقطة اللاعودة كما قلنا فان المرحلة القادمة تشمل المسارين السورى واللبنانى، حتى يصبح السلام شاملا ويسود ربوع المنطقة بأكملها، واذا اردنا ان نستفد من خبرات ثمانية عشر عاما فى أروقة ودهاليز العملية السلمية فعلينا جميعا ان ندرك ان التطرف موجود وكامن فى كل أرجاء الشرق الأوسط وأن هذا التطرف يقتنص الفرص ليفرض نفسه على الساحة أملا فى فرض البدائل التى تنسجم مع اتجاهاته، ومن هنا فإن البطء فى عملية السلام يعتبر غذاء ووقودا للابقاء على التطرف، لأنه يعمل على الدوام على إحياء الأمل بالنسبة لهؤلاء فى أن يتمكنوا يوما من تحقيق غايتهم المنشودة ، مادامت العملية السلمية الشاملة لم تحسم بالكامل، ومادامت هناك أطراف اخرى مازالت تتقدم بحذر خطوة واحدة الى الامام ثم سرعان ماترتد الى الخلف خطوتين .. ومادام هذا الموقف مستمرا فإنه يعتبر تشجيعا ـ وليس تغليبا ـ لجميع اتجاهات التطرف فى المنطقة وهى اتجاهات أعتقد أن كل الحكومات والدول ـ وحتى حكومات ودول الشرق الأوسط ـ تتفق على ضرورة القضاء عليها، من أجل الحياة والبقاء ، ولا أقول «من أجل مستقبل أفضل للجميع» لأنها عبارة رنانة أصبحت مستهلكة ، ولأن مستقبل اى دولة يعتمد بالدرجة الأولى على سواعد وانجازات أبنائها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية